المعرفة الانسانية في نظر البحث الحديث

تحدث كلمة «المعرفة» دوياً ونبرة خاصة في أذن الذين اتصلوا اتصالاً قوياً بالحياة الصوفية وروحانياتها فالمعرفة في كلام الصوفيين كلمة ذات سعة وعمق لا يمكن أن يحدّ بمقياس علمي ثابت وانما يتصل بأعماق ما في القلب الانساني من احساس بالحياة المثلى ولن أحاول أن اتحدّث اليكم الليلة عن المعرفة في هذا الجو الروحي السامي إذ أعرف أني مهما بذلت من مجهود في إيضاح ما ترمي اليه هذه اللفظة ذات الحروف السبعة من رموز ومدلولات خانتني شاعريتي ووجدت نفسي بعد أن يجول بي القلم ما يجول في الحدّ الذي أبتدأتُ منه ذلك لأن المعرفة لدى الصوفيين قبل أن يحاول المرء أن يصوّرها في ذهنه من طريق التعاريف والتحديدات المختلفة لا بدّ أن يكون ذا ذوق سليم وذا بصيرة لا تكتفي بما حواليها بل تخترق الحجب فاذا بالانسان أمام الجمال المطلق وأمام حالة خاصة لا يدركها هؤلاء الافراد الذين لم يتصلوا بالتصوّف الا من طريق الدراسات الجافة ؛ فلن أُحاول إذن أن ألج بنفسي وبكم في هذا الميدان الذي لا باب للخروج منه بل انه لميدان مستدير تسير من اليمين الى الشمال فلا تلبث أن تكون في اليمين بعد قليل كانما هي حياة لا أوّل لها ولا اخير ومتى كان لعالم يزخر ويموج بهذه الانوار التي تضيئ النفس وتميت ما فيها من احساسات شريرة أول واخير ؟ ولكن إذا خشينا أن نتحدّث عن المعرفة في عالم التصوّف وعالم الروح فلن نخشاها في عالم ثانٍ له مقاييس ثابتة واصطلاحات معروفة يستطيع كل شخص أن يمتحن استعداده فيه فلا يفشل وفي عالم لا يتعمق في الحياة الا بمقدار ما هو مشاهد ملموس ولا يغور الا والطريقة مصاءة كانما لا غور .

هذا العالم لا ريب أنكم عرفتم اسمه من اوّل وهلة فليس هناك شيء حدّدت جوانبه وقصت اطرافه مثل العلم وعلم مدنية اليوم بصورة خاصة حيث اصبح واضحاً لا يتاح للمرء ان يتيه فيه ولو لحظة .

فلنحاول ان نصوّر في اذهاننا صورة عن المعرفة الانسانية كما تتراءى للبحث الحديث الذي هو اساس المدنية الغربية الحاضرة فلن نصادف في طريقنا صعوبة في الموضوع الا صعوبة الدرس ، إذن لنساير العلم لحظة في ان يحدّد لنا المعرفة ويميز اقسامها كانما هو يحدّد ويقسم مادة من هذه المواد التي نلمسها بأيدينا ، وفي محاولة العلم هذه متعة للفكر وسبر لمجهوداته في الكشف عن خبايا الحياة من طريق التجربة والتعليل المادي .

والبحث الحديث لا ينظر الى المعرفة الا باعتبارها نتاج الانسانية في مختلف اطوارها التي درجت عليها في الماضي وتدرج عليها اليوم ، هذا النتاج صورة يتناولها الباحث ويمعن النظر فيها ويقلبها من وجوه ثمّ يبدي فكره ومن خلال الافكار التي ابداها جماعة المفكرين استقرّ الرأي العلمي ان ننظر للمعرفة هذه النظرة ونصورها زبدة لما وصل اليه الانسان سواء من طريق الشعور والاحساس أو من طريق الاستنتاج العقلي أو المنطقي أو من طريق التجربة والاختبار .

ومن هنا جزئت المعرفة ثلاثة اجزاء واستطعنا ان ندخل مختلف الصور التي تعرض للمرء في سائر اطواره الظاهرة في هذا التعريف وهذا التقسيم ونمزج كلّ ما يقدمه الفكر الانساني من انتاج في دائرة نسميها « معرفة بشرية » .

ولم يستطع العلم ان يضع حدوداً فاصلة بين اجزاء المعرفة لدرجة يصبح فيها اللبس بين تلك الاجزاء اشبه شيء بالمستحيل وانما استطاع ان يميز الجزء عن الآخر تمييزاً تتصوره كما تتصور كل شيء في العالم النظري للعلم .

وأول جزء من اجزاء المعرفة تلك القوة المبدعة التى اصطلحنا ان نسميها بالفن قوّة يدعها الله في بعض الافراد فاذا بهم يضعون للانسان النماذج العليا لمختلف صور الحياة فيبدعون في الوضع ويتسامون في الابتكار فهم رسل رسالتهم الجمال يتلمسونه في كل محاولاتهم ويسعون اليه في كل خطراتهم وتختلف وسائل تأديتهم لهذه الرسالة فمنهم من يؤدّي رسالته عن طريق الشعر حيث يكوّن من ابياته صورة حية تراها تسير وتراها تضطرم بما تضطرم به صور الحياة الانسانية ومن الفنانين من يؤدي رسالته عن طريق الرسم فاذا بك امام صورة تراها فترى فيها سراً من اسرار الحياة ولا تستطيع أن تتفهم هذا السر اكثر من ان تلفظ كلمة في نفسك هي «الجمال» ومنهم من يتخذ من الصخرة الصماء وسيلة لابراز فكرة في نفسه فاذا بتمثاله يكاد يتكلم ويكاد يسير وهكذا بقية الفنانين فهم يعبرون عن مكنون نفوسهم ويرسمون تلك الصورة التي تتراءى لهم في ساعة الهامهم .

واذا انتقلنا الى الجزء الثاني من اجزاء المعرفة الانسانية أو اجزاء النتاج الانساني في نظر البحث الجديد بالاحرى فعلينا لنهتدي اليه ان نفكر في هذه القوّة التي تحضنا ان نقارن وان نستنتج وان نتلمس العلل النظرية لما نشاهد في يومياتنا من حوادث مختلفة وصور متباينة ربما كانت مقدماتها واحدة فهذا الباحث في فلسفة التاريخ وذلك المحلل لشخصية عظيم وذلك المفكر الاجتماعي العميق التفكير كلهم ندخلهم ويدخلهم البحث الحديث في صف الادباء ويعتبرهم افراداً ليسوا ذوي حظ كبير من الخيال وانما هم ذوو حظ كبير من سعة الفكر وسعة التأمل والاستنتاج يتزوون في زاوية فاذا بزاويتهم عالم يموج فيه فكرهم وتأملهم فيهتدي الى آراء يكون لها في الغالب قيمة في الحياة العملية كما لها قيمة كبرى في عالم النظريات .

وإذ تلمسنا الجزء الثالث وهو الاخير لم يصعب علينا الاهداء اليه ولا تغالطنا التعريفات في طريقنا اليه فهو العلم التجريبي الذي لا يعتمد مطلقاً على الاحتمالات بل يتجرد في كل شيء ليشاهد ويجرّب ويحلل العناصر تحليلاً تاماً ثم يردّ كل عنصر منها إلى اصله فإذا بك في ميدان البحث العلمي الصحيح أمام عناصر اولية لا يشوبها مزج ولا اختلاط لكن العالم يقف أمام تلك العناصر بعد عملياته العجيبة حائراً مندهشاً يسائل نفسه ما مصدر هذه العناصر البسيطة هل استطيع ان اهتدي الى تعليل لوجودها أو تعليل لما فيها من قوّة تنفعل وتتجاذب فلا يجد أمامه الا باب الاحتمالات فيلجه مرغماً .

هذه أجزاء المعرفة الانسانية في نظر البحث الحديث فأية صلة تربط هذه الاجزاء وأي احساس يشعر به الفنان نحو أخيه العالم أو الاديب نحو اخيه الفنان؟ فمن الغريب أن تتراءى لنا مخاصمة تلوح في الجوّ بين الآونة والاخرى بين رسل المعرفة فيتفاضلون كأنما هم اطفال في ساحة يلعبون ، ولكن هي الحياة سرها النزاع وعوامل تقدمها حب الذات ، وإلا فأية منافرة نستطيع أن نتصورها بين اجزاء المعرفة

حتى أنه يخيل للعالم في بعض الاحيان أن يضمر عداوة لأخيه الفنان أو الاديب ويخيل لهذين عداوة بينهما فمن الغريب أن نسمع في عصرنا وهو عصر المعرفة والسعة الفكرية من يتصور أن العلم يقضي على الفن والادب يتلاشى أمام البحث التجريبي إلى غير ذلك من الاراء السطحية التي تصور للمرء كأنما للحياة الانسانية ناحية واحدة ليس من المستطاع أن تخرج عنها يراها العالم في معمله والاديب في فكره والفنان في خياله أما الذين أوتوا نصيباً من حرية النفس ونستطيع أن نسمي هذا النصيب بالشمول الفكري فهم يرون أن كل جزء من أجزاء المعرفة متمم للآخر لا يمكن للحياة أن تسير دونه بل نستطيع أن نرى في العالم فناناً خيالياً وفي الادب عالماً تجريبياً دون أن يندمج الاول في الثاني ولا الثاني في الاول .

فالعالم ايضاً قبل أن ينكب على معمله وتجاربه تتراءى صورة أمام نظره فيعمل على ابرازها للوجود فتشغل الآت وتميز عناصر ويرى بمجاهير بينما الفنان يستعمل في ابراز صورته الخيالية الريشة او المنقاش او آلة الطرب وبينما العالم يستوحي عقله وتجاربه في تجميل صورته اذ الفنان يستوحي الهامه وشاعريته والاديب يناجي فكره وجولاته وكل منهم يؤدي رسالته للحياة وهو مطمئن ثائر مطمئن على نفسه ثائر على المجتمع إذ يسعى في كل محاولاته ان يقفز به خطوة الى الامام ويريه من صور الحياة التي لا علم له بها والتي لا يمكن ان يصل الى ادراكها دون هؤلاء الاجزاء الثلاثة .

اذن لا نستطيع ان نفهم جيداً ما تعنى به جماعة من الكتاب السطحيين من وجود شيء يسمى منافرة او عداوة بين اجزاء المعرفة الثلاثة الا ان تكون هناك منافرة بين العالم الجيولوجي وبين الطبيب حيث ان مابين ايديهما من وسائل البحث مختلف ومتباين بينما غايتهما واحدة هي البحث عن اسرار الحياة الانسانية وما غاية الفنان او الاديب الا حصول الانسجام بين اجزاء تلك الاسرار وربطها بالاحساس البشري ووضعها في حيز الذوق المعنوي.

فالروائي مثلا شخص يجمع في نفسه وانتاجه بين روعة الخيال الفني وجزالة الاسلوب الادبي واراء العلم المؤيدة بدعائم التجاريب والابحاث العملية بل ان الاديب والفنان عند ما يبلغان قمة المجد والنبوغ كثيراً ما يكشفان حجباً عن النفس الانسانية وعن اسرار المجتمع لا يستطيع العلم أن يدركها بطرقه الا بعد اجيال ولنا في شعرائنا وادبائنا وشعراء وادباء بقية الامم خير مثال .

فالشاعر ليس بذلك الرجل التائه في بيداء الخيال كما تزعم طائفة من المشتغلين بالعلم التجريبي بل هو الرجل الذي يتصل حسه وشعوره بالوجود من طريق تلك العاطفة التي هي جزء من اجزاء النفس البشرية فاذا بالشاعر يضع من طريق شعره النماذج التي ينبغي أن تكون مثلا حياً لما في النفس من نزعات متضاربة لم يتصل العلم بها اتصالا متيناً ولم يحللها الا تحليلا بسيطاً وهكذا سائر الفنانين يعبرون عن هذا الجزء الغامض من نفس الانسان بينما العلم لا يجرأ ان يقدم لنا تحليلا نرضاه عن ذلك الجزء من نفسنا .

هكذا جزأ البحث الحديث ما يسمى بالمعرفة اما لو احببنا وحاولنا ان ناخذ كل جزء من تلك الاجزاء ونحصي ونرتب ما يتفرع عنه لاضطررنا ولا ريب الى احاديث في سهرات اخرى فالمعرفة اليوم تنوعت اكثر من ذي قبل وهي في نمو مدهش متواصل فلا تمر مناسبة دون ان يستولد البحث علماً جديداً ويبني له دعائم واساليب التفكير به اما الادب فقد اتسع ميدانه وشمل مباحث كانت تعد بالامس القريب من صميم العلم ومباحث جديدة لم يعهدها آباؤنا

الاولون ، واما الفن واساسه الوحيد الخيال والاحساس فلم يتنوع ولم تزدد فروعه زيادة محسوسة وان كان النابغون الفنانون خطوا به في عالم النضوج الصحيح وتأدية رسالته المثلى للبشرية وتعبيره عن الاحساس الانساني خير تعبير .

على أننا لو فكرنا أن نضع تخطيطاً لما يشتمل عليه كل فرع عن تلك الفروع لكان مجهودنا عبثاً بعد سنوات لان الحياة الفكرية للانسان في تطوّر مستمر ونمو متواصل ولقد سعى الفلاسفة أن يحصروا العلوم ويصنفوها ويرتبوا مراتب الانتاج الانساني في العهد الماضي وفي المكاتب اليوم مؤلفات لهذا الغرض ذاته لا ننظر اليها الآن الا من ناحية تاريخية بحته لنرى كيف تطور نظر الانسان فيما ينتجه .

وكلمة ختامية آتي بها متسائلا: هل هذه الاجزاء الثلاثة للمعرفة تعبر عن كل ما تستطيع نفس الانسان أن تغور فيه وهل تكفي تلك الاجزاء من المعرفة أن تزيل كل ما يتراءى للانسان من ضباب وانفعالات في هذه الحياة وأن تشبع ما في اعماق نفوسنا من نزعات متضاربة ؟

ان مدنية هي مدنيتنا الحاضرة قامت في التاريخ الحديث على دعائم هذه الاجزاء دون غيرها وقد خطت بالانسانية في سبيل مبتغاها المادي خطوات ننظر اليها اليوم متفائلين فاذا ما أمعنا النظر في عناصر هذه المدنية بين مختلف الجماعات التي تتحمل اعباءها رأينا - وياالاسف - القوّة النفسية الروحية لتلك الجماعات تنحل تدريجياً وتموت في نفوسهم معنى الايمان بالحياة في اسمى معانيه وهذا الايمان هو أول عنصر من عناصر السير بالجماعات في سبيل انشودتها العالية مما بعث روح التشاؤم في كثير ممن يصلون بين التاريخ الانساني في مختلف مراحله ويستخرجون منه عبرة للحاضر والمستقبل فما للغرب من مدنية سيطر عليه الا تجاه المادي سيطرة تامة فأصبح الانسان لا يتطلب السعادة الروحية بمقدار ما يسعى لاشباع رغباته الجسمية مع اعترافنا أن تلك الاجزاء الثلاثة للمعرفة تخطو خطواتها في عالم الازدهار وتحرز النصر أثر النصر ولكن المدنية الغربية تتراءى لكثير من الفلاسفة ان بناءها سينهار يوماً قريباً والجماهير في الغرب سأمت المادة وتتجه اليوم صوب الروحانية وتصبو الى غذاء يقوي سيرها وخطواتها .

فهل نستطيع اذن أن نجيب على أسئلتنا الماضية بالايجاب فلا نرى أن تلك الاجزاء الثلاثة كافية لاشباع ما في نفوسنا من غور ونزعة وتمرّد .؟

سؤال وجواب ليس لهما من موضوع في كلمتنا هذه الا أن يبعثا في المرء روح البحث وروح التساؤل عن مخبئات النفس الانسانية التي لا أظن أن البحث الحديث اهتدى إلى حل الغازها أكثر مما اهتدى الانسان النير في أول خطوات الحياة الفكرية ذلك أن المرء لم يشتغل كثيراً في تفهم نفسه بل ابتعد عن تلك المحاولات واهتم بالمادة يحللها ويؤلف منها ما يساعده على اشباع رغباته .

سعيد حجي

حول الترجمة والتاليف والنشر

الترجمـــة

لقد سبق لنا ان نشرنا عدة مقالات تناولت هذا الموضوع ونرجع اليه اليوم لان الترجمة أهم الاغراض التي تأسست لاجلها الجمعية المغربية للترجمة والتاليف والنشر ولانها من اكبر الوسائل التي ينبغي لنا أن نستخدمها للنهوض من رقدتنا واللحاق بغيرنا من الامم الراقية .

ونريد في هذه المحاضرة ان نتناول المسائل الأتية - ضرورة الترجمة واسلوب الترجمة وقابلية اللغة العربية لشؤن الحضارة العصرية - وكثيراً ما كتب في هاته المسائل وقتلت بحثاً ولاكن لا باس باعادة القول فيها زيادة في البيان وترويجاً للفكرة .

فان ضرورة الترجمة تكاد ان تكون أمراً مسلماً ، ولاكن اقواماً